مِنصة مُدارسة الروايات السودانية

الندوة (3)

مناقشة رواية (الرجل الخراب) للروائي عبد العزيز بركة ساكن

السبت 2020/06/27، الساعة التاسعة مساء

****

الرجل الخراب: خطاطة سردية مراوغة وراوي مُنَازع!

ورقة رئيس الجلسة، الدكتور عاطف الحاج سعيد

مساء الخير إن كان مساء، وصباح الخير إن كان صباح، مرحب بالجميع في الندوة الثالثة التي تنظمها مِنصة مدارسة الروايات السودانية والمخصصة لمناقشة رواية الرجل الخراب للروائي السوداني الكبير عبد العزيز بركة ساكن. أود أن أشير إلى أن منصة مُدارسة الروايات السودانية تعقد ندوة واحدة كل أسبوعين بصورة راتبة، وفي رصيدها الآن ندوتين، فقد ناقشت في الندوة الأولى رواية "حديقة بلا سياج" للروائي صلاح البشير، وناقشت في الندوة الثانية رواية "أزمنة الترحال والعودة" للروائي الحسن محمد سعيد. تم عقد الندوتان الأولى والثانية على الواتساب، ونسعى في هذه الندوة الثالثة أن ننقل جزء من نشاط الندوة على تطبيق زووم بمساعدة واستضافة الباش مهندس معتز عادل النور على أن يستمر عقد الندوات على تطبيق الواتساب بالتزامن.

ندوة اليوم مخصصة لمناقشة رواية الرجل الخراب كما أسلفنا، وسأقوم بتقديم الورقة الرئيسية على أن يعقب عليها كل من الدكتورة مواهب إبراهيم والبروفيسور عبد الغفار الحسن.

تقع رواية الرجل الخراب في 122 صفحة من القطع المتوسط، فهي اذاً من الروايات القصيرة دون أن يكون لحجمها أي تأثير بكل تأكيد على قيمتها الفنية. تتوزع الأحداث فيها على إحدى

عشر فصلا تكاد تتساوي في عدد صفحاتها. سأعتمد في ورقتي هذي على النسخة الورقية من الرواية. سأبدأ مقاربتي لنص الرواية باستعراض الحكاية، حكاية حسني درويش جلال الدين.

حسني درويش كما تقدمه الرواية من مواليد مدينة وادي حلفا شمال السودان لأم مصرية وأب سوداني، توفي والده وهو بعد في المدرسة الابتدائية فأنتقل نتيجة لذلك مع والدته للعيش بمدينة أسيوط بجنوب مصر. واجهته تعقيدات كثيرة في دراسته بمصر لأنه قانوناً يعتبر أجنبياً، ومنذ تلك اللحظة التي نطق فيها مدير المدرسة الابتدائية المصرية تلك الجملة "لا يمكن قبول طالب أجنبي..." بدأ سؤال الهوية يطرق رأسه بشدة. واصل دراسته بمصر الى أن تخرج في كلية الصيدلة في جامعة أسيوط وأمضي فترة الامتياز بمستشفى حكومي في أسيوط. في سنواته الجامعية الأولى انضم الى الجماعات الإسلامية ولكن بعد اعتقاله وتعذيبه وتهديده بالخصي من قبل قوات الأمن قرر مفارقة درب الجماعات. في المستشفى الحكومي التقى بشخص غيّر مسار حياته تماماً، فقد جاءه رجل خمسيني يبحث عن حبوب وأخبره هذا الشخص بأنه مقيم في السويد عندها قال له درويش: "أريد أن أذهب أنا أيضاً للسويد أو أية دولة أوروبية أو أمريكية. الحياة هنا تعني العدم ..." ص 24، عندها رسم له هذا الشخص عالماً يوتوبياً عن الحياة في أوروبا وشحذّ خياله الضعيف "لكنك عندما تصل أول دولة أوروبية أخرى سوف تنسى كل شيء وتعيش كإنسان، أنسان حقيقي" ص 25، ويسر له سبل الاتصال بعصابات الهجرة غير الشرعية.

الى هنا تظل شخصية درويش شخصية بسيطة غير مثقفة ومتوسطة الاستقامة بمقاييس مجتمعها ومتدينة بدرجة ما. لكن تبدأ التحولات في هذه الشخصية عندما تخرج من حالة السكون التي كانت فيها وتبدأ التواصل والتفاعل مع عالمٍ مُخرّب وأشخاص مُخرَبون ومُخرِبون لتُبذر فيها بذرة الخراب التي ستُسقى في البدء بسؤال الهوية المُلح وبالرغبة في الفرار من عالم لا كرامة للإنسان فيه يمثله بلده ومجتمعه والالتجاء الى عالم يقدس إنسانية الانسان ويمثله الغرب. يسلك دروب الهجرة غير الشرعية، وهي دروب قاسية وقاتلة. وان نجا درويش من الموت لكن علق بروحه كثير من الوحل وبدأت البذرة في النمو. وضعته رحلة هجرته في مواجهة مع كثير من التابوهات التي ربما لم تكن موضوع جدال عنده. يكذب ويزور ويركب وسط خنازير في شاحنة متجهة للنمسا برفقة عاهرة تمارس معه الجنس وتحقنه بالعناصر الأولية لزعزعة كثير من مسلماته ابتداءً من فكرة الخنزير النجس الملعون.

منذ وصوله الى النمسا وبعد قضاء فترة الانتظار في معسكر اللجوء قرر درويش قطع كل الوشائج التي تربطه بكل ما هو مسلم وعربي وقرر أن يتخلص من كل ماضيه وفضّل أن يبدأ حياته من غير تأريخ وألا ينظر الى الوراء مرة أخري وأن يبتعد قدر المستطاع مما يسميه منطقة الغليان وسيرة الغليان في إشارة لبلاده وثقافته، وأول ما بدأ به هو أسمه، سمي نفسه رسمياً هاينرش. عمل في وظيفة مُخرّي لكلبي السيدة لُوديا شُولز وهي أول وظيفة أتيحت له. ثم تزوج أبنة لوديا شولز التي تدعى نورا في صفقة ينال بها هو إقامة وجنسية نمساوية وتشاركه نورا في تركة الام التي اوصت بالقسم الأكبر منها لدرويش، ليصبح بعدها أسمه هاينرش شُولز.

يبتدر الروائي بركة ساكنه روايته ببيت شعر يقول: أيها القارئ المرائي، يا شبيهي، يا أخي! وهو البيت الأخير من قصيدة الي القارئ للشاعر الفرنسي شارل بودلير وهي القصيدة الافتتاحية لديوانه الأشهر أزهار الشر التي يقول مقطعها الأخير:

إنه الضجر، تلك العين المغرورقة بدمع لا إرادي

تحلم بالمشانق وهي تدخن النارجيلة

تعرفه، أيها القارئ، هذا الوحش الرهيف!

أيها القارئ المرائي، يا شبيهي، يا أخي

وهو استهلال لا يخلو من دلالات رمزية، كأني بالروائي يقول لقارئه: أنت أيها الماكر تعرف مثلي الكثير لذا لن العب معك لعبة الايهام، فأنا سأكون موجودا بجانبك وسأكون شفافاً بما يكفي معك وسأحميك من الاعيب هذا الراوي. سيتضح هذا الأمر عند استعراضنا للبنية السردية المُخرِبة التي تتفرد بها هذه الرواية والتي تمثل الرهان الأساسي للكاتب بركة ساكن. إذاً اختار الكاتب أن يعرض ثيماته عبر خطاطة سردية غير متواترة وراوي منازع في سطوته على الحكي.

توصف الرواية في الدرس النقدي، بقليل من التبسيط، بأنها قبل كل شيء بنية سردية تشيدها ثلاث مكونات رئيسة هي الراوي وهو الشخص الذي يخبر بالحكاية وهو شخصية هلامية لا وجود فيزيائي لها على أرض الواقع يبتدعها المؤلف أو الكاتب (وهو شخص حقيقي) ليعبر من

خلالها عما يريد قوله وعادة لا يظهر هذا المؤلف في ثنايا الرواية بصوته المباشر أو بالأحرى يجب ألا يظهر أبداً. ثم المروي وجوهره هو الحكاية التي يسردها الراوي والتي يحكمها إطار زمكاني، ثم أخيراً المروي له وهو متلقي الرواية. هذه المكونات الثلاث تحكمها كثير من القوانين التي تنظمها وتنظم العلاقات بينها لن يسعنا المقام في الاستطراد فيها. حاول بركة ساكن في روايته هذه العبث بمكونات هذه البنية السردية وارباك العلائق القائمة بينها وارباك المتلقي كنتيجة حتمية لذلك، فهو متلقي منمّط يعيد بناء معني النص استناداً على خبرات نصية سابقة. في الرجل الخراب يتداخل الراوي بالكاتب بالشخصيات الثانوية والشخصية الرئيسة لتتشكل بذلك شبكة سردية مربكة ولذيذة يصبح القارئ طرفاً فيها، يحدثه الكاتب ويناقشه في محاور الرواية ويستقوي به ضد الراوي العليم ويعبث به وتصبح سلطة هذا الراوي موضع نزاع مستمر على امتداد الرواية الى أن ينتهي هذا النزاع باختفاء الراوي وتسلم الشخصيات الثانوية لزمام السرد.

تبدأ الرواية على لسان الراوي الذي يقول: "نورا شُولز، تبدو اليوم أكثر سعادة من أي وقت مضى في حياتها..."، ويستمر الراوي ممسكاً بزمام السرد الى أن يبرز صوت الكاتب مقاطعاً في صفحة 16، يقول الكاتب "أشعر الان برغبة الراوي في التوقف عن السرد..."، ليقدم بعدها الكاتب بيان احتجاج ضد سلطة الراوي التي تتحدي في كثير من الأحيان سلطته ككاتب وتفرض عليه ما لا يرغب فيه. يؤسس بيان الاحتجاج هذا لمشروعية الكاتب في التدخل اثناء السرد انتصاراً لاستقلاليته وتأكيداً لسيطرته على روايته. ثم يسلم بعدها الكاتب زمام السرد للراوي الذي سيسرد للقارئ ما يدور في ذهن درويش أو هاينرش بعدما أخبرته زوجته بأنه ربما ستمارس ابنتهم الجنس لأول مرة في حياتها مع صديقها توني الذي لا يربطه أي رباط شرعي مع البنت، وأن يتم هذا الأمر تحت سقف بيته وبرعايته واشرافه ومطلوب منه ان يظهر سروره بذلك! ثم لا يتوقف بعدها الكاتب عن التدخل وتقديم التبريرات الكافية لتدخله، فهو يتدخل مرة لينفي عن نفسه صفة التواطؤ مع الراوي في استخدام هذا الأخير لتقنية الفلاش باك، ومرة أخري ليظهر تعاطفه مع شخصية درويش الذي لا يحب أن يسرد الراوي جزء من سيرته الذاتية يرى أنه مشين، ومرة أخرى ليحاور القارئ في تنبؤاته لسيرورة الرواية والمحاور التي ستتخذها، ثم يسلم زمام السرد لدرويش لأنه سهل القياد على النقيض من الراوي العنيد والمتسلط وفقاً لما يقول هو. ويستمر هذا الحال الي أن يعلن الكاتب اقصاءه للراوي تماما بسبب تعجل هذا الأخير

لإنهاء الرواية، "... أما الراوي الذي يتعجل نهاية الرواية ليحرر نفسه من أجل أغراض أكثر أهمية، في ظني، وليس كل الظن إثم، فالموت أولى به" ص 108.

ونلاحظ أنه ابتداءً من صفحة 106 وحتى صفحة 108 يحدث تناوب في السرد بين الراوي العليم ودرويش، يتحول درويش من مروي عنه الى راوي بصوته ويتم ها الأمر في انتقالات رشيقة لا يكاد يحس بها القارئ المأخوذ بالحكاية. ثم يظهر الكاتب في الفصل الأخير ليسلم زمام الأمر لنورا شولز التي تختار نهايةً للرواية تختلف عن تلك التي كان يخطط لها الكاتب ثم تُروي هذه النهاية بأصوات ثلاث شخصيات يري الكاتب أنها ثانوية هي توني وميمي ونورا شُولز كلٌ من موقع رؤيته. ألم أقل لكم إنها شبكة سردية مُربِكة لكنها ممتعة. سيقول كثيرون أن بركة ساكن يحاول أن يؤسس لرواية اللاراوية ونقول ان الرواية جنس أدبي حديث نوعا ما قياساً بالأجناس الأدبية الأخرى وأن تقنياتها ستتطور ولا يستطيع كائناً من كان أن يضع شروط ومعايير وقوالب لهذا التطور.